

دراسة مقارنة لأساطير خلق الكون والإنسان

بين السومريين والبابليين

الأستاذة سامية معوشي

التاريخ القديم - بجامعة الجزائر -2-

لقد شغل سكان العراق الأقدمون بقضية أصل الوجود كما شغل غيرهم من البشر في جميع الأزمان، وقد نشأ عن الكهنة في حضارة وادي الرافدين عقائد مختلفة حول أصل الوجود، وقد جسدوا هذه الآراء بهيئة ملاحم شعرية وقصص وأساطير دونوها على رقم الطين بلغة أدبية راقية، وكانت هذه الأساطير والقصص تمتاز بعدم الثبات و الاختلاف فيما بينها، ولكنها تتفق في الفكرة الأساسية، وأشهر هذه المخلفات "أساطير الخلق" المتعلقة بخلق الكون وتنظيمه وتوزيع السلطات بين الآلهة، والتي شغلت حيزاً كبيراً من مجمل النتاج الأدبي الرافدي.

من غير الممكن الحديث عن الأساطير المتعلقة بأمور الخلق والتكوين في حضارة وادي الرافدين جملة واحدة، ذلك أن هناك العديد من الأفكار الأسطورية حول الخلق بدأها السومريون ثم طورها البابليون بعد ذلك، ولكي تتضح معالم هذا التطور يجب الحديث أولاً عن أفكار الخلق السومرية التي لم تتبلور في أسطورة متكاملة، ثم يتبعه الحديث عن أفكار الخلق البابلية التي تبلورت في عدة أساطير بعضها كامل وبعضها الآخر إشارات للخلق وردت في أساطير أخرى⁽¹⁾.

ومن المعروف أنه لم تُستخلص حتى الآن أساطير سومرية تعالج بشكل مباشر وصريح خلق الكون، إلا أن النصوص المتفرقة التي تم العثور عليها والمتعلقة بالأفكار الكونية السومرية، تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكار السومريين بهذا الشأن ونظرتهم

(1) - كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى-تراث الشرق الأدنى القديم- ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999،

إليه⁽¹⁾. ولم تكن أفكار السومريين عن الخلق والتكوين أفكاراً بدائية، بل ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الإنسان، فقد أبدى السومريون مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع المشاهدة، وأن دراسة النصوص الأسطورية المتفرقة تعطينا التسلسل لعملية خلق العالم والكون⁽²⁾.

والمصادر الرئيسية عن تصورات السومريين حول خلق الكون هي مقدمة القصيدة الموسومة بـ "جلجامش وأنكيكو والعالم الأسفل"، حيث كان الشعراء السومريون عادة ما يبدأون أساطيرهم أو قصائدهم الملحمية بمقدمات عن أصل الكون، كذلك كانت هناك مقدمة قصيدة "الماشية والغلة"، التي تجعل من المفترض أن السماء والأرض اللتين اتحدتا كانتا جبلاً قاعدته قاع الأرض وذروته قمة السماء، وعلاوة على ذلك هناك أيضاً القصيدة التي تدور حول خلق الفأس، والتي تجيب على التساؤل عمن فصل السماء عن الأرض، حيث تقرّر بأنه إله الهواء "أنليل"⁽³⁾.

وتشرح أفكار السومريين أصل الكون على النحو التالي: في البدء كانت الإلهة "نمو" ولا أحد معها، وهي الميه الأولى التي انبثق عنها كل شيء، وقد أنجبت الإلهة "نمو" ولداً وبناتاً، الأول هو "أنو" إله السماء المذكر والثانية "كي" إلهة الأرض، وكانا ملتصقين مع بعضهما، ثم أن "أنو" تزوج من "كي" فأنجبا بكرهما "أنليل" إله الهواء، الذي فصل بدوره السماء عن الأرض، فرفع الأول-آن- فصار سماءً وبسط الثانية-كي- فصارت أرضاً، ومضى يرتع بينهما⁽⁴⁾.

(1) - سهيل قاشا، أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص157.

(2) - فراس السواح، مغامرة العقل الأولى-دراسة في الأسطورة-سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين، دمشق، 2000، ص32.

(3) - كارم محمود عزيز، المرجع السابق، ص50.

(4) - Pirenne Jacques, *Civilisations Antiques*, A. Michel, Paris, 1951, P53-54.

وأخيراً وبعد أن فصل أنليل بين السماء والأرض وأعطاهما شكلهما، انصرف إلى خلق بقية عناصر الكون، وهنا أيضاً يأتي الخلق نتيجة الحركة المادية والفعالية الحياتية للآلهة لا نتيجة الكلمة والأمر الإلهي، فظهر القمر والشمس إلى الوجود وكذلك الآلهة الأخرى يأتي نتيجة الفعالية الجنسية للآله "أنليل"، الذي ضالع الإلهة "نليل" فولدت له "نانا" إله القمر، والقمر بدوره أنجب "أوتو" إله الشمس بفعل جنسي آخر⁽¹⁾.

ولم يكن الخلق مهمة تولها إله واحد في سومر، فهاهو الإله "أنكي" يتابع ما بدأه "أنليل" ويضع اللّمسات الأخيرة على صورة الكون، فيملاً دجلة والفرات ماءً نقياً ويخلق فيهما السمك، وعلى شاطئيهما ينشر القصب، ثم يلتفت إلى البحر فينظم شؤونه ويوكل به إلى إلهة اسمها "سيراذا"، ثم يلتفت إلى الرياح والأمطار... الخ، وأخيراً بعد الانتهاء من عناء الخلق يخلد "أنكي" للراحة والسكينة ويشرع في بناء بيت له في الأعماق المائية⁽²⁾.

من هذه الحقائق المتعلقة ببنية الكون-الحقائق التي كانت تبدوا للمفكرين السومريين واضحة ولا جدال فيها- أنشئوا علماً لنشوء الكون يليق بها، فلقد استنتجوا أن المياه الأولى أصل الوجود⁽³⁾، ومن هذه المياه تم بطريقة ما إحداث الكون، الذي يتألف من السماء ذات القبة التي تعلو الأرض المنبسطة وتتحد معها، ولكن كان يأتي بينهما الجو المتحرك والتمدد الذي يفصل السماء عن الأرض، ومن هذا الجو سويت الأجسام المضيئة

(¹) - كارم محمود عزيز، المرجع السابق، ص 50-51.

(²) - سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 135-137.

(³) - إن فكرة الميلاد المائي في الأساطير السومرية تتكرر فيما بعد في الأساطير البابلية، التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى "تيامة" المقابلة لـ "نمو" السومرية، ولهذا المعتقد نظير في معتقدات العبرانيين، فنحن نقرا في الإصحاح الأول من سفر التكوين "1 في الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. 2 وَكَانَتْ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ". كذلك القرآن الكريم أشار إلى وجود المياه البدئية وذلك في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) [سورة هود الآية:7].

(القمر، الشمس، النجوم...)، وبعد انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجسام النجمية ملوحة الضياء، ظهرت الحياة النباتية والحيوانية والبشرية إلى الوجود⁽¹⁾.

وافترض السومريون أنه كان لتشغيل هذا الكون وتوجيهه والإشراف عليه مجمع آلهة شبيهة بالبشر شكلاً، ولكنها فوق مستواهم وخالدة، وإلا فمن شأن الكون أن يؤول بعد مماتها إلى الفوضى الشاملة وينتهي العالم، وهي (الآلهة) وإن تكن محجوبة عن رؤية العين إلا أنها تسيطر على الكون وفق خطط محكمة وقوانين راسخة⁽²⁾، ولكن عندما فقدت بلاد سومر سلطتها السياسية وانتقلت السيادة لصالح مدينة بابل التي بدأت أهميتها في التعاضد منذ عام (2000 ق.م)، وأصبحت في حدود (1800 ق.م) مركز للسلطة السياسية في بلاد الرافدين، فإن أسطورة خلق الكون طراً عليها تغيير، فقد قام كهنة بابل بإحداث تطوير في قصة الخلق لتتناسب ومكانة "مردوخ" إله بابل، فظهرت ملحمة الخليقة البابلية "الإينوما-اليش" التي لا تختلف في جوهرها كثيراً عن معتقدات السومريين التي جئنا على ذكرها من قبل⁽³⁾.

وتعتبر هذه الملحمة-الخليقة البابلية- إلى جانب "ملحمة جلجامش" من أبرز القصائد الشعرية في الأدب الديني الرافدي، وواحدة من أكثر الروائع الأدبية في محتواها وقدمها وشهرتها، وتعرف عادة باسم "الإينوما-اليش"، وذلك من أول كلمتيها اللتين تعنيان "عندما في الأعالي"، وهي تضم أكثر من ألف بيت، وأسبغت عليها صفة القدسية، إذ كانت تتلى أثناء احتفالات رأس السنة في بابل كجزء من شعائر هذا العيد⁽⁴⁾.

وقد وجدت الملحمة موزعة على سبعة ألواح فخارية أثناء الحفريات التي كشفت عن قصر الملك "آشور بانيبال"، ومكتبته التي احتوت على آلاف الألواح في شتى

(1) - فراس السواح، موسوعة تاريخ الأديان-مصر، سورية، بلاد الرافدين، العرب قبل الإسلام - الكتاب الثاني، دار علاء الدين، دمشق، 2004، ص185.

(2) - نفسه، ص ص188-189.

(3) - فاضل عبد الواحد علي، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، ج2، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1980 ص20.

(4) - Léon Thoores, *Panorama de Littérature, Mésopotamie- Egypte Palastine, Perse, Grèce-* Marabout Université, Belgique, 1966, P50.

الموضوعات الأدبية والدينية والقانونية وما إليها⁽¹⁾، وأما عن تاريخ تأليف الملحمة فعلى الرغم من أن أقدم نص من نصوصها يعود تاريخه إلى القرن العاشر قبل الميلاد، إلا أن الاعتقاد السائد هو أن زمن نشوء الملحمة أقدم بكثير من هذا التاريخ، ويقول رأي بأن تاريخ كتابتها يعود إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد⁽²⁾.

تحدثنا الأسطورة أنه في البدء الأول قبل أن يُخلق شيء عال يُسمى السماء وشيء وطيء يُسمى الأرض، لم يكن سوى المياه الأزلية ممثلة في ثلاثة آلهة: الأول مذكر يسمى "أبسو" (عنصر الماء العذب)، والآخر مؤنث يسمى "تيامة" (عنصر الماء المالح)، وأخيراً "مو" التي حملت بهما⁽³⁾.

«...في الأعالي حين لم يكن للسماء اسم ولم يكن للأرض الثابتة الوطنية من تحتها اسم ولم يكن هناك سوى ذرائعهما الأزلي "أبسو" و"مو" (Mummu) -تيامة (Tiamat) - تلك التي حملت بهما معا...»⁽⁴⁾.

ونتيجة التزاوج بين (أبسو وتيامة) ولدت في بعض أزمان غير بعيدة أجيال من الآلهة، على أن هذه الآلهة قد أشقت أبسو وتيامة بضجيجها وصخبها، فكان أن عزم الإله أبسو على التخلص منها، على الرغم من أن زوجته الإلهة تيامة قد أوصته بالرحمة والرأفة بهم⁽⁵⁾.

«...كانت أفعالهم مججوجة

(1) - George Contenau , *La vie Quotidienne a Babylone et en Assyrie*, Hachette, Paris, 1950, P197.

(2) - كرم محمود عزيز، المرجع السابق، ص54.

(3) - موسكاتي سبتينو، *الحضارات السامية القديمة*، تر: السيد يعقوب، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1997، ص58-59.

(4) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، *مصر والشرق الأدنى القديم - حضارات الشرق القديم العراق وفارس - ج6*، دار المعارف، لبنان، 1967، ص276.

(5) - George Contenau , *Op. Cit*, P198.

وكانت وسائلهم غير مستساغة...ولم يعد في الطاقة احتمالمهم

...وفتح أبسو فاه

وقال لـ "تيامة البهية":

حقاً إن طرائقهم ممجوجة

إنني لا أجد متنفساً في النهار أو راحة بالليل

إنني سأمضي وسأدمر وسائلهم

حتى يعود الهدوء...لنجد راحة...⁽¹⁾.

وحين بلغ مسامع الآلهة الحديثة بالنوايا السيئة التي يُضمّرها لهم الإله أبسو وعزمه على إبادةهم كافة، لاذوا إلى الإله "أيا" المتبحر بالمعرفة والعلم والحكمة لحمايتهم، فعمد الإله "أيا" إلى قوته السحرية فعمل تعويذة سحرية شلّت حركة "أبسو"، ثم قتله وانتزع منه تاج الألوهية، ثم كان أن أقام "أيا" مسكنه الخاص من فوق "أبسو" الميت، وهناك ولدت زوجته "دامكينا" الإله "مردوخ"، الذي كان على أتم ما يكون من كمال الخلق وقرة عين أبيه⁽²⁾.

وأما تيامة فقد اشتد حقدّها على الآلهة الحديثة بعد مقتل زوجها وانتفضت لأخذ الثأر له، فجنّدت كل ما لديها من قوى وأرواح شريرة وفتاكة للانتقام والثأر، فخلقت لهذه الغاية حيّات ضخمة لا تعرف للرحمة معنى، وثعابين مفترسة ووحوشاً كاسرة وعقارب وأسماك وحشية...الخ، وجعلت هذه الجيوش الجرارة تحت إمرة الإله "كنجو" زوجها الثاني، الذي أقامته كبير الآلهة وأودعت إليه ألواح القدر⁽³⁾.

ولما علمت الآلهة الحديثة بما تخطط له تيامة وصحبها أصيبت بالهلع والذعر، وسارعت إلى عقد اجتماع طارئ لتتدبر الأمر، وبعد الأخذ والرد أعلنت بالإجماع اختيار

⁽¹⁾ - صمويل نوح كيريم، أساطير العالم القديم، تر: أحمد عبد الحميد يوسف، مر: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974.

⁽²⁾ -Edouard Dhorme , Les Religion De Babylonie Et D'assyrie, 2^{ed}, PUF, paris, 1949, P304.

⁽³⁾ -Léon Thoorens, Op. Cit, P52

الإله مردوخ، الذي فوضت إليه مسؤولية الدفاع عنها، وخوض غمار حرب طاحنة ضد تيامة⁽¹⁾، وبموجب قصة الخليقة البابلية يضطلع الإله مردوخ بالمهمة فيخرج لمنازلة تيامة وهو مزود بأسلحة فتاكة وكل القوى السحرية الضرورية، وأثناء القتال قهر مردوخ الإلهة تيامة، حيث تصيدها بشبكته وشر جسدتها نصفين، رفع النصف الأول فصار سماءً، وسوى الثاني فصار أرضاً⁽²⁾.

وبعد هذا الانتصار التفت مردوخ إلى باقي عمليات الخلق، فخلق النجوم محطات راحة للآلهة، وخلق الشمس والقمر وحدد لهما مسارهما، ونظم الآلهة في فريقين جعل الأول في السماء وهم "الأنوناكي"، والثاني جعله في الأرض وما تحتها وهم "الأجيغي"، ثم التفت إلى خلق الحيوان والنبات، وأخيراً خلق الإنسان من دماء الإله "كنجو"⁽³⁾، وبعد الانتهاء من عملية الخلق اجتمع مردوخ بجميع الآلهة واحتفلوا بتتويجه سيّدا للكون، ثم بنوا له مدينة بابل ومعبد "الإيساجيل"⁽⁴⁾.

يتضح من خلال تلخيص هذه الأسطورة أن عملية الخلق وإيجاد نظام الكون بوجه عام في الديانة البابلية لم تتم بعملية هادئة كما هو الحال في أساطير الخلق عند المصريين، وإنما انعكست البيئة الرافدية التي تميزت بالمفاجآت على أصل الخليقة في أنها صراع وكفاح

(1) - صمويل نوح كيرمر، المرجع السابق، ص 99-100.

(2) - فيما يتعلق بفكرة فصل السماء عن الأرض يتفق النصان البابلي والتوراتي على أن السماء أتت نتيجة فصل المياه الأولى إلى قسمين، ففي النص البابلي حدث الفصل نتيجة قيام مردوخ بشرط جسد الإلهة تيامة (المياه الأولى) إلى نصفين، فرفع الأول سماء وبسط الثاني أرضاً، وكذلك الحال في الأسطورة التوراتية حيث يقوم إله العبرانيين بفصل المياه الأولى إلى شطرين رفع الأول إلى السماء، وبسط الثاني الذي تجتمع ماؤه في جانب، وبرزت منه اليابسة إلى جانب آخر، فنحن نقرا في الإصحاح الأول من سفر التكوين " 6 وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَكُنْ جَلْدٌ فِي وَسْطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهِ وَمِيَاهٍ». 7 فَعَمِلَ اللَّهُ الْجَلْدَ وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلْدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلْدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ. 8 وَدَعَا اللَّهُ الْجَلْدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا. 9 وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ وَلْتُظْهِرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذَلِكَ. 10 وَدَعَا اللَّهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بَحَارًا. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. " كما اثبت لنا القرآن الكريم حادثة فصل السماء عن الأرض وذلك في قوله تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) [سورة الأنبياء الآية: 30].

(3) - فراس السواح، (مغامرة العقل الأولى)، المرجع السابق، ص 55.

(4) - Léon Thoorens, Op. Cit, P53.

بين الآلهة، في حين لا نجد أثر الصراع في أسطورة الخلق السومرية كالذي نجده في ملحمة الخليفة البابلية، بل يتعاون على فعل الخلق كبار آلهة الباثيون السومري الثلاثة: "آنو وأنليل وأنكي، وإلى جانب ملحمة التكوين الأساسية قَدِّمت لنا الأساطير البابلية نصوصاً أخرى حول نفس الموضوع، إلا أن معظم النصوص ناقصة بسبب الحالة التي وصلت عليها الألواح الفخارية التي احتوت عليها، إضافة إلى أن النصوص نفسها لا ترقى إلى مستوى ملحمة "الإنوما-اليش" من الناحية الجمالية⁽¹⁾.

وعلاوة على خلق الكون، كان خلق الإنسان واحداً من المواضيع الهامة التي تناولتها الأساطير السومرية والبابلية على حد سواء، فحسب أسطورة سومرية يعود زمن تدوينها إلى الألف الثالث قبل الميلاد كان نمط حياة الآلهة بعد نشوء الكون وضعياً وقبيحاً، إذ تغذت الآلهة بالأعشاب وشربت مياه السواقي وتجولت عارية⁽²⁾.

ولقد أثار هذا الوضع استياء وتذمر الآلهة للأوضاع المزبة التي يعيشونها، فقرروا بالإجماع رفع شكواهم إلى الإلهة "نمو"، التي رفعت بدورها معاناتهم إلى ابنها الإله "أنكي" إله المياه، وطلبت منه أن يخلق عبداً للآلهة ينتج لها طعامها، فكان جواب الإله أنكي أن الأمر ممكن، وما على أمه إلا أن تأخذ لبُّ الطين الذي وسط المياه وتخلق منه الإنسان، وعلى أثر ذلك يقيم أنكي وليمة للأرباب احتفاءً على ما يبدوا بخلق الإنسان، وفي أثناء ذلك تقوم الإلهة "نمماخ" بأخذ قطعة من الطين وجعلها على صورة البشر، بينما يقرر لها أنكي المصائر⁽³⁾.

وعلاوة على خلق الإنسان من الطين، نجد أن بعض الأساطير السومرية قد اتخذت منحى مختلفاً عن الأسطورة السابقة حول مادة خلق البشر، فقد ظهرت إلى جانب الأسطورة السابقة التي تجعل الأصل الطبيي المائي أساس خلق الإنسان أربع ميتولوجيات سومرية أخرى خاصة بكيفية خلق البشر، غير أنها تختلف عن سابقتها في أن كل واحدة منها جعلت

(¹) - صمويل نوح كيرمر، المرجع السابق، ص 99..P53

(²) - نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، (دمط)، 1972، ص 45.

(³) - سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 157.

مادة خلق الإنسان تختلف عن سابقتها، وهذه الأصول هي: الأصل النباتي (أسطورة حشيش أنليل)، الأصل الحيواني (أسطورة على جبل الكون قبل ظهور النعجة)، الأصل الإلهي (أسطورة الإلهة لامكا)، وأخيراً إلى الأصل اللوغوسي (أسطورة الاسم)⁽¹⁾.

أما عند البابليين فتختلف القصص البابلية هي الأخرى في وصف الطريقة الدقيقة التي تمّ بها صنع الإنسان، كما تتعدّد أسماء الآلهة الخالقة للبشر كما هو الحال في الأساطير السومرية، غير أنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن الإله صنع الإنسان من قطعة من الطين⁽²⁾، فعلى سبيل المثال تضمن الرقيم الأول من ملحمة جلجامش قضية خلق الآلهة للإنسان، ملخصه أن جبروت وطغيان جلجامش وجميع أفعاله السيئة قد أثارت عليه حفيظة واستياء أهل مدينته، فشكوه للآلهة السماوية، والتي رفعت بدورها شكواهم إلى الإله أنو العظيم، فاستدعى هذا الأخير الإلهة "أورورو" آلهة الخلق، وطلب منها أن تصنع غريباً ونظيراً لجلجامش يضاهيه في القوة والعزم، وليكن في صراع دائم حتى يحل السلام في الوركاء، فامتثلت "أورورو" لأمر الإله "أنو"، فغسلت يديها والتقطت طيناً وعجنته وبصقت فيه وصنعت بطلاً قوياً هو "أنكيديو"⁽³⁾.

وعلاوة على ملحمة جلجامش، يخبرنا الرقيم السادس من ملحمة الخليقة البابلية "الإينوما-اليش" أن الإله مردوخ قرّر أن يخلق الإنسان ليعمل للآلهة في معابدها ويطعمها

(1) - للتفصيل في هذه الأساطير انظر: خزعل المجدي، متون سومر، الكتاب الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1988، ص 164-182.

(2) - إن خلق الإنسان من الطين في النصوص السومرية والبابلية له ما يوازيه في معتقدات العبرانيين، إذ تنص التوراة على أن الإنسان جبل تراباً في أكثر من موضع، إذ نقرا في الإصحاح الأول من سفر التكوين: "24 وَقَالَ اللَّهُ: «لِنُخْرِجَ الْأَرْضَ دَوَاتٍ حَيَّةٍ كَحَنَسِيَّاهَا: بَهَائِمَ وَدَبَابَاتٍ وَوَحُوشَ أَرْضٍ كَجَنَسَامِيَّاهَا». والثاني: "7 وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ تُرَاباً مِنَ الْأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْساً حَيَّةً". والثالث: "19 يَعْزِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ". كما أن القرآن يثبت خلق الإنسان من الطين في أكثر من موضع: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) وخلق الجن من مارج من نار (سورة الرحمن الآية: 14 - 15. وفي قوله تعالى: (قل ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك، قل أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) (سورة الأعراف الآية: 11).

(3) - Samuel Noah Kramer, *L'Histoire Commence à Sumer*, Arthaud, France,

من ذبائحه وقرايبه، كي تنصرف إلى مهامها الإلهية وترتاح من العناء، فاستشار أباه "أيا" فنصحه أن يذبح "كنجو" قائد جيش تيامة ليخلط دمه بالعظام والطين ويصنع الإنسان⁽¹⁾.

كما تتميز قصة الطوفان لبطله "اتراخاسيس" عن قصة الخليقة وعن غيرها من المراجع المسمارية ذات العلاقة بخلق الإنسان، في أنها تحتوي على تفاصيل وافية عن عملية الخلق لا يجدها الباحث في المؤلفات المسمارية الأخرى⁽²⁾، فنحن نقرأ في منتصف الرقيم الأول من هذه الأسطورة أن الآلهة العظام: "أنو" و"أيا" و"أنليل" اجتمعوا ليتدبروا الأمر بشأن التمرد الذي قامت به الآلهة المسملة "الأجيغي"، والمعروف عن هذه الآلهة أنها أوكلت بمهمة استصلاح الأرض وفلاحتها، وأنها عملت قرابة الأربعين عاماً حتى أضناها التعب، فأعلنت عصيانها مُطالبة بخلق بديل عنها يحمل مشقة العمل⁽³⁾.

وبعد مناقشة الأمر بين الآلهة العظمى؛ أرسل "أيا" إله الحكمة في طلب "نينتو" إلهة النسل لتخلق الإنسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة "لولو" (Lullu)، وتذكر قصة الطوفان أنه جيء بعد ذلك بالآله "وي-ايلا" فدُبح أمام الآلهة، ومع لحمه ودمه مزجت الإلهة نينتو الطين وخلقت الإنسان⁽⁴⁾.

"...وذبحوا في مجلسهم "وي-ايلا" الذي كانت له شخصية

مع لحمه ودمه مزجت نينتو الطين

ثم استمعوا إلى الطبل، لما تبقى من الوقت

فكانت رَوْح من لحم الإله ونودي الإنسان الحي رمزاً لها...⁽⁵⁾.

وفي الأخير ما يمكن استخلاصه على ضوء ما تقدم من الأساطير السومرية والبابلية الخاصة بخلق الإنسان، أنها تتفق على نقاط جوهرية بخصوص خلق البشر هي:

¹ - Edouard Dhorme, *Op. Cit.*, P306-307.

⁽²⁾ - سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 157.

⁽³⁾ - كارم محمود عزيز، المرجع السابق، ص 60.

⁽⁴⁾ - سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 157 - 158.

⁽⁵⁾ - فراس السواح، (مغامرة العقل الأولى)، المرجع السابق، ص 197.

- بأن الإنسان خلق من الطين، وإن دلّ هذا الإيمان على شيء فإنما يدل على ملاحظتهم للسهولة التي كان يفقد فيها الإنسان حياته وخاصة أثناء انتشار الأوبئة أو طغيان الفيضان، ومما يدعم هذا الاعتقاد أيضاً إضافة إلى الملاحم الخاصة بخلق الإنسان هو الوصف الخاص بموت الملك "أورنامو" حيث جاء فيه: «أورنامو قد سقط على الأرض مثل إناء محطّم»⁽¹⁾.
- أن خلق الإنسان لم يكن غاية في حد ذاتها أو نتيجة مكتملة لبقية مراحل الخلق، وإنما بسبب العناء الذي أصاب الآلهة من جرّاء العمل في الأرض، فقرّرت أن تخلق بديلاً عنها يحمل المشقة⁽²⁾، وطبقاً للتقاليد البابلية كانت الحالة الأولى للجنس البشري بعيدة كل البعد عن البساطة والجمال، فقد كان الإنسان مخلوقاً لم يتلقَ بعد تعليمًا في فنون مهارات الحياة، وكان يعيش عيشة حيوانية حتى جاء مهوّل يدعى "أوانيس" نصفه سمكة ونصفه فيلسوف، فعلمه الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون، ولما علّمه إياها نزل إلى البحر وكتب كتاباً في تاريخ الحضارة⁽³⁾.
- أنه خلق من أجل خدمة الآلهة؛ أي من أجل أن يكبح في سبيل إطعامها وبناء معابدها⁽⁴⁾.

(1) - فوزي رشيد، **الديانة، حضارة العراق**، ج1، دار الحرية، بغداد، 1985، ص180.

(2) - كارم محمود عزيز، المرجع السابق، ص59.

(3) - كمال سغفان، **معتقدات أسبوية-العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان** - دار الندى، ط1، 1999، (دمط)، ص65.

(4) - إذا كان الهدف الذي خلق من أجله الإنسان في النصوص المسمارية هو أن يحمل الثّير بدلا عن الإلهة في سبيل إعمار الأرض، فإن مصيره في التوراة كان مشابها لهذا تماما أيضا، فنحن نقرأ في الإصحاح الأول والثالث من سفر التكوين: "26 وَقَالَ اللَّهُ: نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشِبْهِنَا فَيَسْلُطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ". 27 فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. 28 وَبَارَكَهُمُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَانْمُوا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسَلَطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ». 17 وَقَالَ لِآدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا مُلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. 18 وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. 19 يَعْرِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خَبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». وعلى الرغم من أن الهدف الذي يقدمه النص التوراتي في البداية هو السيطرة على سمك البحر، وطيّر البحر، وعلى البهائم...، إلا أنه يعود فيفرض عليه عبء العمل تماما كالنص السومري.

وأخيراً بقي لنا في نهاية حديثنا عن خلق الكون والإنسان أن نأتي على ذكر الوسيلة التي كان الإله يحقق بها خلق ما يشاء من الأشياء، إذ يُستنتج من النصوص المسمارية وخاصة تلك التي تتعلق بخلق الإنسان والكون، أن الآلهة كانت تستطيع تنفيذ مشيئتها فتخلق الأشياء التي تريدها بوسيلتين: الأولى بـ "صنع الشيء"؛ أي عمله حسب رغبة الإله، وعلى النحو الذي رأيناه قبل قليل في عملية خلق الإنسان⁽¹⁾.

وأما الوسيلة الثانية بواسطة "الأمر الإلهي" أي بـ "بقوة الكلمة الإلهية الخالقة"⁽²⁾، ووفقاً لهذا المبدأ لم يكن على الإله إلا أن يضع الخطط وينطق بالكلمة ويعلم الاسم؛ أي اسم الشيء المراد خلقه⁽³⁾، فبعد أن كان الخلق يتم لأن الإله يُضاجع، صار له القدرة على الخلق كلما نطق أو قال للأشياء: كن فتكون⁽⁴⁾، غير أن هذه الوسيلة الأخيرة ليست واضحة كل الوضوح، فكلمة الإله مردوخ في قصة الخليقة البابلية ليست قادرة على كل شيء، فلو كانت كلمة هذا الإله لها كلفة القدرة لكان باستطاعته قهر عدوه تيامة، أو على الأقل إيقافها عند حدّها بقوة كلمته دون الحاجة إلى خوض حرب ضروس ضدها على النحو الذي جاء في قصة الخليقة.

والحالة الاستثنائية الوحيدة عن فاعلية كلمة الإله في خلق الشيء بمجرد قول "كن" تلك التي ترد في الرقيم الرابع من قصة الخليقة البابلية، حيث نقرأ عن اختبار مردوخ لقوة كلمته أمام الآلهة فعندما "نطق" اختفى الرداء الذي بسطته الآلهة أمامه، وعندما "نطق ثانية" عاد الرداء إلى محله⁽⁵⁾.

(1) - فاضل عبد الواحد علي، من سومر إلى التوراة، ط2، سيات للنشر، مصر، 1996، ص197.

(2) - وردت عقيدة الخلق بالكلمة الخالقة في الأديان السماوية، وتتجلى بوضوح أكثر في العقيدة الإسلامية، وعن ذلك قوله تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) سورة يس الآية [82]. وفي قوله تعالى أيضاً: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) سورة النساء الآية [171].

(3) - كارم محمود عزيز، المرجع السابق، ص51.

(4) - خزعل الماجدي، المرجع السابق، ص256.

(5) - فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص197.

«...وجهوا الحديث إلى مردوخ بكرهم قائلين:

حقاً إن قرارك هو الأول بين الآلهة

مُرّ بالغرق أو الخلق يَكُنْ ما تأمر به

افتح فمك تتلاشى قطعة القماش

تكلم ثانية فتعود القطعة كما كانت

واختفت قطعة القماش حين قال كلمته

ثم تكلم ثانية فعادت سليمة...»⁽¹⁾.

يتضح جلياً مما سبق أن الدين شغل المساحة الأوسع من تفكير الإنسان

العراقي القديم، ولقد كان له تأثير بارز على النتاج الفكري الأدبي خاصة السومري

منه والبابلي، ويعتبر مرآة تعكس معتقدات القوم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1- قائمة المصادر:

- المصادر الدينية:

أ- القرآن الكريم، عن رواية حفص عن عاصم.

ب- الكتاب المقدس (العهد القديم)، تر: مجموعة من علماء اللاهوت، دار الكتاب المقدس، بيروت، 1995.

2- قائمة المراجع:

أ- العربية:

1- إبراهيم نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم-حضارات الشرق القديم العراق وفارس - ج6، دار المعارف، لبنان، 1967.

2- سباتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوب، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1997.

(1) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 293-294.

- 3- سغنان كمال، معتقدات أسيوية-العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان- دار الندى، ط1، (دم)، 1999.
- 4- السواح فراس، مغامرة العقل الأولى-دراسة في الأسطورة-سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين، دمشق، 2000.
- 5- السواح فراس، موسوعة تاريخ الأديان-مصر، سورية، بلاد الرافدين، العرب قبل الإسلام- الكتاب الثاني، دار علاء الدين، دمشق، 2004.
- 6- عزيز كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى-تراث الشرق الأدنى القديم- ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999.
- 7- علي فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، مصر، 1996.
- 8- علي فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، ج2، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1980.
- 9- فرح نعيم، موجز تاريخ الشرق الأدنى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، (دم)، 1972.
- 10- قاشا سهيل، أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية، بيسان للنشر والتوزيع، سورية، 2003.
- 11- كريم صمويل نوح، أساطير العالم القديم، تر: أحمد عبد الحميد يوسف، مر: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974.
- 12- المجدي خزعل، متون سومر، الكتاب الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1998.
- 13- نجبة من الباحثين، حضارة العراق، ج1، دار الحرية، بغداد، 1985.

ج-الأجنبية:

- 1- Contenau George, **La vie Quotidienne a Babylone et en Assyrie**, Hachette Paris, 1950.
- 2- Dhorme Edouard, **Les Religion De Babylonie Et D'assyrie**, 2ed, PUF, paris, 1949.
- 3- Jacques Pirenne , **Civilisations Antiques**, A. Michel, Paris, 1951.
- 4- Kramer Samuel Noah, **L'Histoire Commence à Sumer**, Av. Propos de Jean Bottéro, Trad. de Josette Hesse, Arthaud, Paris, 1957.
- 5- Thoarens Léon, **Panorama des Littératures- Mésopotamie. Egypte. Palastine. Perse. Grèce-** Marabout Université. Belgique, 1966.